وهل التخطيط الصارم، أي إخضاع مسار العملية الإجتماعية للعقل، هو عدم إيمان بالإنسان «بما فيه من كوامن عقلية وإبداعية وحس بضرورة الحرية»؟ إن وليد مسعود لم يكلّف نفسه بالإلتفات إلى القضية الأساسية: وهي العلاقة بين الحرية والضرورة. وهو قد ألغى وعي الضرورة كشرط للحرية، حين نسبها إلى نزعة غامضة.

وليس، هنا، مجال التوسّع في مناقشة آراء وليد الإجتماعية. ولكن لا بد لنا من أن نؤكّد أنها تتنافى مع كل من: أ ــ شخصية وليد مسعود، كما ترسمها الرواية. ب ــ فكرة الثورة المسلّحة. ج ــ الظرف الموضوعي لحركات التحرّر الوطني في العالم الثالث.

شخصية وليد مسعود

ترسم الرواية شخصية وليد مسعود باعتباره شخصية طاغية، باطشة، هو وحده الغاية، وكل من حوله وسائل. ما أن يقترب منه الإنسان، حتى تستلب إرادته، ويتحوّل إلى إحدى شخصيات القطيع في علاقتها مع الأب. إنه يخصي أبناءه ليمنعهم من الإقتراب من حريمه. وقد سبق أن شرحنا هذا.

كما تصفه، الرواية لنا، بصورة الشخص الذي لا يطيق معارضة، أو نقاشاً فيما يقول. من يعترض عليه بذيء، لا يستحق الرد، ومن يمدحه يعجز عن فهمه. والعالم جميعه، يحتاج إلى عشرين عاماً لفهم ما يقول. أو لإمكانية فهم ما يقول. إنه يرفض الحوار مع الآخرين، ويطلب إليهم الخضوع المطلق، ويطلق آراءه لبشر سوف يأتون في المستقبل، وهم وحدهم يملكون إمكانية فهمه، لا الحكم عليه. أية آراء تلك التي نعجز، نحن البشر الفانين، عن فهمها! إنها كما أعتقد، آراء شديدة السذاجة، وتفتقد الأصالة.

ووليد مسعود هو الذي يقول عن الآخرين:

«تعرض لي حلمتيها كنذير بالثواب والعقاب التقمهما وأجن... لو أستطيع أن أضع الأحاسيس اللذيذة في صندوق مخملي لشعشعت كالماس في ليل بهيم في عالم من البهائم يقرطون الحصى ويلعبون بخصيهم...».

ويقول:

«أنت بطة برية، ما الذي تفعله بين هذه الطيور القعيدة في المستنقعات؟ أهرب، أيها البطة البرية، أهرب، أهرب...».

والرواية تؤكّد، وكذلك وليد، إن كل من يعترض على كلمة يقولها وليد، أو يطرح رأياً مخالفاً له، فهو سيء النيّة، حاقد.

وإذا أضفنا إلى ذلك «نزعة الإبداع الغامضة» التي يؤمن بها وليد، وما يقوله عنه الدكتور طارق: «ولو لم يكن له [لوليد] اهتمام، يصل إلى حد الغيبيات، بالنجوم وأثرها في حياة الناس، لما عبئت بأنه من مواليد برج الجدي...». وهذا الإيمان بالقوى الخفيّة، يجيء